

﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ٣ ربيع الأول ١٤٤٦ هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ سَبَابِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَالَّتِي هِيَ سَبَبٌ لِلْفَلَاحِ أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ ﷻ بِمُقْتَضَىٰ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَالْمُؤْمِنُ الْوَدُودُ مَحْبُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، وَإِنَّ مِنَ التَّعَبُّدِ بِاسْمِ اللَّهِ الْوَدُودِ مَوَدَّةَ الرَّجُلِ لِرُؤُوسِهِ، وَرِفْقَهُ بِهَا، وَمَوَدَّةَ الْمَرْأَةِ لِرُؤُوسِهَا، وَحُسْنَ عِشْرَتِهَا لَهُ، أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ أَبِي أُذَيْنَةَ الصَّدْفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ نِسَائِكُمُ الْوَدُودُ الْوَلُودُ الْمَوَاتِيَةُ الْمَوَاسِيَةُ [أَي: الْمُوَافِقَةُ لِلزَّوْجِ]، إِذَا اتَّقَيْنَ اللَّهَ». فَخَيْرُ النِّسَاءِ مَنْ جَمَعَتْ بَيْنَ تَوَدُّدِهَا لِرَبِّهَا، بِاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ، وَتَوَدُّدِهَا لِرُؤُوسِهَا، بِتَتَبُّعِ مَحَابِبِهِ، وَخَيْرُ الرِّجَالِ مَنْ كَانَ خَيْرًا لِأَهْلِهِ، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي». وَالْمَوَدَّةُ أَحَدُ رُكْنِي الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وَحُسْنُ الْمَصَاحَبَةِ لِلْأَقْرَبِينَ، وَتَذَكُّرُ جَمِيلِ الْآخَرِينَ، وَالْوَفَاءُ لِلْأَبَاءِ الرَّاحِلِينَ هُوَ مِنْ مُقْتَضَى الْعَمَلِ بِاسْمِ اللَّهِ الْوَدُودِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، إِنَّهُمْ الْأَعْرَابُ، وَإِنَّهُمْ يَرْضُونَ بِالْيَسِيرِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وَدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَبْرَ الْبَرِّ صَلَةٌ الْوَلَدِ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ».

قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْمِنْهَاجِ شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمِ بْنِ حَجَّاجٍ»: وَفِي هَذَا فَضْلُ صَلَّةِ أَصْدِقَاءِ الْأَبِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِبِرِّ الْأَبِ وَإِكْرَامِهِ؛ لِكَوْنِهِ بِسَبَبِهِ، وَتَلْتَحِقُ بِهِ أَصْدِقَاءُ

الْأُمَّ وَالْأَجْدَادِ وَالْمَشَايخِ وَالزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ. اهـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ نَشْرِ الْمَوَدَّةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ إِفْشَاءَ السَّلَامِ، وَالتَّسَامُحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحُبَّ الْخَيْرِ لَهُمْ، وَإِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ، وَالرَّفْقَ بِضِعْفَائِهِمْ، وَمُسَاعَدَةَ فَقِيرِهِمْ، أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي «مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ»، وَحَسَنَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَيَّ اللَّهُ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَآنَ أَمْشِي مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا»، يَعْنِي مَسْجِدَهُ ﷺ بِالْمَدِينَةِ.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الْمُسَارَعَةَ وَالِاسْتِعْجَالَ فِي أَمْرِ الطَّلَاقِ بِدَايَةِ مُعَانَاةِ التَّفَكُّكِ الْأَسْرِيِّ وَالِإِفْتِرَاقِ، وَهُوَ أَسَاسُ النُّفْرَةِ بَيْنَ الْقُلُوبِ، وَتَشْتَّتِ شَمْلِ الْمَحْبُوبِ، وَضَحِيَّتُهُ هُمْ الْأَبْنَاءُ الْأَبْرِيَاءُ.

لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَقْدَ الزَّوْاجِ مِيثَاقًا غَلِيظًا، فَزَيَّنَ عَلَيْهِ حُقُوقًا وَوَاجِبَاتٍ، وَشَرَعَ فِيهِ أَحْكَامًا، وَأَنْزَلَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، فَجَعَلَ الْعِلَاقَةَ الزَّوْجِيَّةَ أَسَاسَهَا الْمَوَدَّةَ وَالرَّحْمَةَ، وَبِهِمَا تَكُونُ الْمَحَبَّةُ وَالْأُلْفَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. وَحَثَّ سُبْحَانَهُ عَلَى حُسْنِ الْعِشْرَةِ وَبَذْلِ الْمَعْرُوفِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَأَنْصَفَ سُبْحَانَهُ فِي الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ، فَقَالَ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وَجَعَلَ الْقَوَامَةَ وَالْوِلَايَةَ بِيَدِ الرَّجَالِ، فَقَالَ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

وَحَذَّرَ سُبْحَانَهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْأَذَى وَالْجَوْرِ وَالْبَغْيِ وَالْعَنْتِ، فَقَالَ ﷺ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الزَّوْاجَ مَسْئُولِيَّتُهُ عَظِيمَةٌ، وَحُقُوقُهُ جَسِيمَةٌ، بِهِ تُحَصَّنُ الْفُرُوجُ وَيَحْصُلُ النَّسْلُ، وَبِهِ السَّعَادَةُ وَالِاسْتِقْرَارُ، أُبْرِمَ عَقْدَهُ بِمِيثَاقٍ غَلِيظٍ، وَوُطِّدَتْ أَرْكَانُهُ بِوَلِيٍّ وَمَهْرٍ وَشُهُودٍ.

وَلَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ الطَّلَاقَ لِلْحَاجَةِ وَرَفَعَ الضَّرَرَ، وَأَرْشَدَ الْإِسْلَامُ إِلَى حَلِّ الْمَشَاكِلِ الزَّوْجِيَّةِ قَبْلَ الْفِرَاقِ، فَأَذِنَ حِرْصًا عَلَى الْبَقَاءِ فِي الْوَعْظِ وَالْهَجْرِ وَالتَّأْدِيبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾.

فَإِذَا تَنَافَرَتِ الْقُلُوبُ وَأَصْبَحَتْ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلِالْتِمَامِ، وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ، وَيُسَسَّ مِنَ الْوِثَامِ، فَاِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، فَالطَّلَاقُ آخِرُ الْحُلُولِ؛ وَلِهَذَا رَغَبَ الشَّرْعُ فِي الرَّدِّ وَالْمُرَاجَعَةِ، وَجَعَلَ الْعِصْمَةَ بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَمْتَلِكُ حَقَّ الرَّجْعَةِ مَرَّتَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، وَتَعَدُّ الْمُطَلَّقَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، لَعَلَّ اللَّهَ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا، فَيَتَرَاجَعَا وَيَصْطَلِحَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

إِنَّ الطَّلَاقَ مُفْسِدٌ لِلصُّحْبَةِ، وَمُفَرِّقٌ لِلْأَحْبَةِ، وَمُخْرَبٌ لِلْبُيُوتِ، وَمُمَزِّقٌ لِلْأَسْرِ، وَخُطُوءُ الْفَشْلِ، وَنَهَايَةُ الْأَمَلِ، وَبِدَايَةُ الْكَدْرِ وَالْأَحْزَانِ، وَمُعِيقٌ لِتَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ، وَسَبَبٌ لِضِيَاعِهِمْ وَضِيَاعِ الْحُقُوقِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا الْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ.

إِنَّ النِّكَاحَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْإِعْتِصَامِ، وَأَكْبَرِ دَاعٍ إِلَى التَّعَفُّفِ وَالتَّحَصُّنِ مِنَ الْأَوْزَارِ وَالْآثَامِ،

فَاخْتَارُوا لِطُفُكُمُ، وَاظْفَرُوا بِذَاتِ الدِّينِ، وَإِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدَّمَنِ، فَإِنَّ الْخَبِيثَاتِ لِلْخَبِيثِينَ، وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، أَلَا وَإِنَّ النِّسَاءَ أَمَانَةٌ فِي ذِمِّكُمْ، وَوَصِيَّةُ اللَّهِ ﷻ وَوَصِيَّةُ نَبِيِّهِ ﷺ لَكُمْ.

وَمَعَ أَنَّ بَيْتَ النُّبُوَّةِ خَيْرُ الْبُيُوتِ وَأَزْكَاهَا، إِلَّا أَنَّهُ مَرَّ بِظُرُوفٍ عَصِيبَةٍ كَحَدِيثِ الْإِفْكِ، الَّذِي مَكَثَ النَّاسُ فِيهِ شَهْرًا، لَا يَعْلَمُونَ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ الْأُمُورُ، ثُمَّ نَزَلَتِ الْبَرَاءَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ النِّكَدَ وَالْعِنَادَ وَسُوءَ الْأَدَبِ مَعَ الْأَزْوَاجِ، وَإِفْشَاءَ أَسْرَارِ الْبُيُوتِ، وَعَدَمَ تَحَمُّلِ الْمَسْئُولِيَّاتِ، وَالتَّأَثُّرَ بِمَا يُعْرَضُ فِي وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ مِنْ تَفَاهَاتٍ يُؤَدِّي لِلْفُشْلِ وَخَرَابِ الْبُيُوتِ، وَيُشْتِتُ شَمْلَ الْعِيَالِ، وَيُؤَثِّرُ سَلْبًا فِي حَيَاتِكُمْ، فَاتَّقِينَ اللَّهَ فِي بُيُوتِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ.

إِنَّ التَّخْيِيبَ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ وَإِفْسَادَ الْأُلْفَةِ، وَزَرْعَ الْفِتْنَةِ بَيْنَهُمْ، وَتَحْرِيطَ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، وَالتَّسَبُّبَ فِي الْفِرَاقِ وَالطَّلَاقِ حَرَامٌ يَتَحَمَّلُ فَاعِلُهُ التَّبَعَاتِ، أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَمْ يَكُنِ التَّرَابُطُ فِي الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَطْ، بَلْ مِنْ طَرَفِ زَوْجَاتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَيْضًا، وَذَلِكَ بِتَقْدِيرِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَمَعْرِفَةِ قَدْرِ الزَّوْجِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ بَدَأَ بِي، فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لِكَ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ»، قَالَتْ: قَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيْ لَمْ يَكُونَا لِيَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتِعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: فِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيْ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ.